دراسات

لاجئوا الجوع

بقلم : جان زيكلير[١] Jean Ziegler

ترجمة : أ. رشيد أبو ثور



وصول قارب إلى اسبانيا

مقدمة المترجم

يعرف العالم اليوم ارتفاعاً مهولاً في أسعار المواد الغذائية، بشكل قد يعرض الملايين من مستضعفي هذا العالم إلى مجاعة قاتلة، تضيف إلى حاضرنا فواجع جديدة، وكأن ما يعرفه الواقع العالمي من مآسي تطحن الأبرياء والمستضعفين غير كاف لتحريك ضمائر القاسية قلوبهم عساهم يدركون أن لحياتهم نهاية، وأنهم ملاقو ربهم في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم وعمل صالح، ليعيدوا بالتالي النظر في تعاملهم الظالم مع غيرهم من البشر.

ويعزوا الكثيرون هذا الغلاء إلى المضاربة في قوت الناس، وآخرون إلى الشروع في استعمال الكثير من الحبوب في إنتاج الطاقة بسبب ارتفاع أسعار النفط. أما الباحث الأمريكي سنوغ هونغبينغ - من أصل صيني - فلقد ذهب في كتابه :

"حرب العملات (The currency war) " الذي صدر في أيلول (سبتمبر) ٢٠٠٧

إلى أن هذا الغلاء يعود إلى تراجع سعر الدولار وارتفاع أسعار البترول والذهب، الذي تم بتدبير من البنوك الكبرى التي يمتلك بعضها عائلات يهودية، وعلى رأسها عائلة روتشيلد؛ والغرض من هذا العمل هو ضرب ما يسميه سنوغ هونغبينغ "المعجزة الصينية" الاقتصادية، مع الإشارة إلى وصول الاحتياطي الصيني من العملات الأجنبية إلى أرقام قياسية، تزيد عن ألف مليار دولار، مما يجعل منه أكبر احتياطي من العملات الأجنبية تمتلكه دولة في العالم؛ ويشير كذلك إلى أن الارتفاع الجنوني لأسعار النفط الذي تتزايد حاجة الصين له، سيستنزف مدخرات هذه الأخيرة إذا أرادت مواصلة نموها الاقتصادي.

غير أن الذي لا بد من الإشارة إليه كذلك أن الجوع في العالم ليس وليد هذه الظروف الطارئة، وإنما هو نتاج نظام التبادل التجاري المجحف الذي لا يجد غضاضة في امتصاص آخر قطرة دم من شرايين المستضعفين والكادحين؛ فلقد أشار تقرير لصندوق النقد الدولي إلى أن أسعار الغذاء في العالم ارتفعت بمعدل ٤٠% خلال العام ٢٠٠٧. أما الذين يعانون من الجوع في العالم فيقدرهم تقرير البنك الدولي بنحو مليارين من البشر، حيث يقل إنفاقهم عن دولارين في اليوم؛ أما الذين يعيشون تحت خط الفقر بإنفاق لا يزيد عن دولار واحد في اليوم، فيمثلون سدس سكان العالم.

فهذا الوضع المجحف هو الذي يدفع بالعديد من الشباب الإفريقي البائس واليائس إلى الإلقاء بنفسه في أمواج البحر المتلاطمة لعله يتمكن من العبور إلى الضفة الأخرى آملا أن يجد فيها بعض الخبز والكرامة. وهذه الهجرة السرية في ارتفاع متواصل رغم ما يحدث من مآسي الغرق؛ ولم تعد تقتصر على الكبار، بل أضحت تغري وبشكل متزايد حتى القاصرين. ولقد أعلن بهذا الخصوص فرانسيسكو بيثينتي، المنسق الإقليمي لمنظمة الصليب الأحمر بإقليم ألميرية الإسباني، أن المهاجرين القاصرين غير الشرعيين الذين وصلوا سنة ٢٠٠٧ الشواطئ الإسبانية عبر القوارب ارتفع بنسبة تتراوح ما بين ٣٠ % إلى ٤٠ % مقارنة مع السنة السابقة. وأشار إلى أن الـ ٢٤١٠ قاصر الذين وصلوا إلى الساحل الإسباني سنة ٢٠٠٧ على متن قوارب صغيرة، يتوزعون كما يلي : ١٢٥٢ منهم مغاربة، و٨٠٨ من الجزائر و٢٧٨ من إفريقيا جنوب الصحراء. ولقد أصبحت إسبانيا تعرف هجرة من نوع جديد أطلق عليها اسم «زوارق الأسرة»، حيث إن عددا من العائلات الإفريقية أصبحت تفضل الهجرة إلى إسبانيا عبر القوارب رفقة أطفالها الصغار.

إن وصول الناس إلى هذه الحالة من اليأس لم يأت اعتباطا، بل له أسباب موضوعية، للاتحاد الأوروبي دور أساسي في إنتاجها كما يفصل ذلك جان زيكلير **Jean Ziegler** في البحث القيم التالي :

لاجئوا الجوع

كانت ليلة مظلمة بدون قمر، والريح تهب بسرعة تفوق الـ ١٠٠ كلم في الساعة، مثيرة أمواجاً تعلوا لأكثر من ١٠ أمتار؛ لترتطم بقوة رهيبة بقارب خشبي واهي. وكان ذلك القارب قد غادر خليجا صغيرا على الشاطئ الموريتاني قبل عشرة أيام، وعلى

متنه ١٠١ لاجئ جوع إفريقي. ومعجزة لم تكن منتظرة ألقت الأمواج بالقارب على رصيف صخري بشاطئ "الميدانو" El Medano في جزيرة صغيرة من أرخبيل "الكاناري" Les Canaries. و عثر رجال الحرس المدني الإسباني في قعر القارب على جثث ثلاثة مراهقين وامرأة، وقد قضوا جوعا وعطشا.

وفي نفس الليلة، وعلى بعد بضع كيلومترات جنح قارب قديم آخر على شاطئ "إلهييرو" El Hierro، وعلى متنه ٦٠ رجلا و١٧ طفلا و٧ نساء وهم عبارة عن أشباح مترنحة على حافة الاحتضار [٢].

وفي نفس الفترة كذلك، ولكن هذه المرة في البحر الأبيض المتوسط، كانت تتفاعل مأساة أخرى : فعلى بعد ١٥٠ كيلومتر جنوب مالطا، لمحت طائرة للمراقبة تابعة لمنظمة فرونطيكس Frontex قاربا مطاطيا تتقاذفه الأمواج الهائجة ـ بسبب ربما عطل أصاب محركه ـ وعلى متنه ٥٣ راكبا. ولقد تمكنت كاميرا الطائرة من رؤية أطفال صغار ونساء. وعند عودته إلى قاعدته في لافاليط La Valette أخبر ربان الطائرة بما رأى، السلطات المالطية التي رفضت التدخل بذريعة أن المنكوبين يوجدون في "منطقة البحث والإنقاذ الليبية ". فتدخلت ممثلة المفوضية العليا للاجئين التابعة لهيأة الأمم المتحدة لورا بولديني Laura Boldini، طالبة من المالطيين إرسال سفينة لإنقاذ الغرقى. غير أن هؤلاء لم يحركوا ساكنا، كما أن أوروبا لم تتحرك، ليبتلع البحر في النهاية القارب المطاطي ومن كان على متنه.

وقبل ذلك بأسبوع كان مركب، يتكدس على متنه قرابة المائة من لاجئي الجوع الأفارقة، يحاول الوصول إلى جزر الكاناري، فغرق في عرض البحر قبالة السنغال؛ ولم ينج من الغرق إلا فردين [٣]... ثم إن آلاف الأفارقة، ومن ضمنهم أطفال ونساء، يقيمون في محتشدات أمام سياجات مدينتي سبتة ومليلية الخاضعتين للسلطة الإسبانية، والواقعتين في منطقة الريف القاحلة شمال المغرب. واستجابة لأوامر مفوضي بروكسيل تطرد الشرطة المغربية هؤلاء نحو الصحراء [٤]. وهكذا يقضي المئات، بل ربما الآلاف منهم في فيافي الصحراء، بسبب العطش [٥].

فكم هو عدد الشباب الإفريقي الذين يغادرون بلادهم معرضين حياتهم للخطر، في سعيهم للوصول إلى أوروبا ؟ يقدر أن مليوني شخص يحاولون سنويا الدخول إلى الاتحاد الأوروبي بشكل غير شرعي، وأن ٢٠٠٠ منهم يقضون غرقاً في مياه البحر الأبيض المتوسط، و ٢٠٠٠ آخرين تبتلعهم مياه المحيط الأطلسي. وهدف كل هؤلاء المهاجرين هو الوصول إلى جزر الكاناري انطلاقاً من موريتانيا أو السنغال، أو عبور مضيق جبل طارق انطلاقاً من المغرب.

تقول الحكومة الإسبانية بأن ٤٧ ٦٨٥ مهاجر إفريقي قد تمكنوا من الوصول إلى الساحل سنة ٢٠٠٦. ويجب أن يضاف إلى هذا العدد، ١٥١ ٢٣ مهاجر الذين تمكنوا من الوصول إلى الجزر الإيطالية أو مالطا، انطلاقا من السواحل الليبية أو التونسية؛ كما أن هناك آخرين يحاولون الالتحاق باليونان عن طريق تركيا أو مصر. يقول الأمين العام لاتحاد منظمات الصليب الأحمر والهلال

الأحمر السيد ماركو نيسكالا Markku Niskala بهذا الخصوص : " لقد تم السكوت تماما عن هذه الأزمة. فلا أحد يقدم أية مساعدة لهؤلاء المنكوبين، بل لا توجد أية منظمة تتولى إجراء الإحصاءات التي تكشف حجم هذه المآسي اليومية." (٦)

ولحماية أوروبا من هؤلاء المهاجرين، أنشأ الاتحاد الأوروبي منظمة عسكرية شبه سرية تحمل اسم فرونطيكس Frontex. وهذه الوكالة هي التي تتولى تدبير شؤون "الحدود الخارجية لأوروبا."

تتوفر فرونطيكس Frontex على سفن حربية سريعة ومسلحة للاعتراض والتوقيف في أعالي البحار، وعلى مروحيات قتالية، وعلى تشكيلة من طائرات المراقبة مزودة بكاميرات للرؤية الليلية عالية الدقة، وعلى رادارات وأقمار صناعية وأدوات جد متطورة للحراسة الإلكترونية البعيدة المدى.

ولقد أقامت فرونطيكس Frontex على الأراضي الإفريقية "مخيمات استقبال" حيث يحشر لاجئو الجوع القادمون من إفريقيا الوسطى أو الشرقية أو الجنوبية، أي من تشاد وجمهورية الكنغوا الديموقراطية وبوروندي والكامرون وإريتريا ومالاوي وزمبابوي... والذين غالباً ما يعبرون اليابسة طيلة سنة أو سنتين، محاولين البقاء على قيد الحياة بأي شكل من الأشكال، والاقتراب تدريجيا من أي شاطئ. فيتم اعتراضهم من طرف رجال فرونطيكس Frontex أو مساعديهم المحليين لمنعهم من الوصول إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي. ونظراً للمبالغ المالية الهائلة التي تمنحها فرونطيكس Frontex للزعماء الأفارقة، فالقليل منهم من يرفض إقامة مثل هذه المخيمات. فالجزائر هي الوحيدة التي أنقذت الشرف عندما صرح الرئيس عبد العزيز بوتفليقة : " إننا نرفض هذه المحتشدات؛ فلن نكون سجاني إخواننا."

تنظيم المجاعة وتجريم من يفر منها:

هناك ظروف معينة هي التي جعلت الأفارقة يفرون عبر البحر : فلقد قضي بشكل سريع على مجموعات الصيادين الذي كانوا يصطادون على السواحل المتوسطية والأطلسية للقارة الإفريقية. وهذه بعض الأرقام :

يعيش في العالم ٣٥ مليون شخص حصريا ومباشرة من صيد السمك؛ ويوجد ٩ مليون منهم في إفريقيا (٧). ويوفر السمك 23,1 % من استهلاك البروتينات الحيوانية في آسيا، و١٦ % في إفريقيا؛ و ٦٦ % من السمك المستهلك يتم اصطياده في أعالي البحار، و ٧٧ % في المياه الداخلية، وتوفر تربية السمك ٢٧ % من الإنتاج العالمي للأسماك. وبالتالي يكتسي تدبير مخزون السمك الذي يتنقل داخل وخارج المناطق الاقتصادية الوطنية، أهمية بالغة بالنسبة للتشغيل والأمن الغذائي للشعوب المعنية.

معلوم أن أغلب الدول الإفريقية الواقعة خلف الصحراء مثقلة بالديون؛ وبالتالي يبيعون حقوقهم في الصيد لمؤسسات صناعية من اليابان وأوروبا وكندا. وهكذا تخرب البواخر الحاملة للمعامل ثروات الصيادين السمكية، بما فيها تلك التي تقع في المياه الإقليمية. إنهم يستعملون شباك ضيقة العيون (الممنوعة مبدئياً)، وغالباً ما يصطادون خارج الفصول التي يسمح فيها بالصيد. ومعظم الدول الإفريقية الموقعة على هذه الاتفاقيات لا تتوفر على بوارج حربية، تمكنها من إلزام الصيادين المخالفين باحترام بنود الاتفاقيات. فالقرصنة ضاربة أطنابها والقرى الساحلية تحتضر.

تقوم هذه المعامل العائمة بفرز السمك و بتجميده أو طحنه أو تعليبه ثم تصدره من الباخرة مباشرة إلى الأسواق. وتمثل غنيا بيساوو التي تتوفر على مناطق اقتصادية غنية بالأسماك مثالا بليغ الدلالة عن تداعيات هذا الوضع : فلكي يحيا أهل هذا البلد الذين يعتبرون من أعرق الصادين، عليهم أن يشتروا من أسواق بلدهم، وبثمن عال، سمكا معلبا قادما من الدانمرك أو كندا أو البرتغال.

وبسبب وقوعهم في الفقر واليأس، وعجزهم أمام النهابة، يضطر الصيادون إلى بيع قواربهم بأبخس الأثمان إلى مجرمين يمتهنون نقل المرشحين للهجرة عبر البحر، أو يتولون أنفسهم ممارسة هذه المهنة. وبحكم أن قواربهم قد صنعت للصيد الساحلي في المياه الإقليمية، فإنها غير مؤهلة للملاحة في أعالي البحار.

ثم إن عدد سكان إفريقيا يكاد يقدر بمليار نسمة. ولقد زاد عدد السكان بين ١٩٧٢ و ٢٠٠٢ بـ ٢٠٣ مليون إفريقي، كلهم يعانون من نقص في التغذية بشكل حاد ودائم. ويعود هذا الوضع لعدة أسباب، أهمها السياسة الفلاحية المشتركة للاتحاد الأوروبي. فلقد سددت الدول المصنعة لمنظمة التعاون والتنمية لاقتصادية لمزارعيها ومربي الماشية لديها، سنة ٢٠٠٦، أكثر من ٣٥٠ مليار دولار لدعم المنتجات المخصصة للتصدير. مما يجعل الاتحاد الأوروبي يمارس بوقاحة لا تلين الإغراق الفلاحي. والنتيجة المحتومة هي القضاء المبرم على مختلف أنواع الفلاحة الإفريقية.

ولتأخذ على سبيل المثال سوق "سنداكة" Sandaga، الذي يعتبر أكبر سوق للمواد الاستهلاكية العادية في إفريقيا الغربية. فـ"سنداكة" يقع وسط دكار، وهو فضاء مفعم بالضوضاء والألوان والنسائم والروعة. وتباع فيه، حسب الفصول، الخضار والفواكه البرتغالية والفرنسية والإيطالية واليونانية، وغيرها بثلث أو نصف أسعار المنتجات المحلية المماثلة. وعلى بعد بضع كيلومترات من هناك تجد الفلاح "الوولوف" wolof يشتغل، هو وأبناؤه، تحت شمس حارقة، حتى ١٥ ساعة في اليوم دون أدنى أمل في الحصول على الحد الأدنى الذي يسد به رمقه. هذا مع العلم أن ٣٧ دولة إفريقية من أصل ٥٢، تعيش حصريا من الفلاحة. وقليل من الناس على وجه الأرض يشتغلون نفس المدة الزمنية وفي نفس الظروف التي يعمل الفلاح الوولوف في السنغال، أو " البمبارا " في مالي، أو "الموسي" في بوركينا فاسو، أو "الباسي " في "كيفو". وسياسة الإغراق الفلاحي الأوروبي تحطم حياتهم وحياة أبنائهم.

ولنعد إلى فرونطيكس. يتصرف مفوضي بروكسيل بنفاق مقيت، حيث إنهم يرتبون لإحداث المجاعة في إفريقيا من جهة، ويجرمون من جهة ثانية لاجئي الجوع. وتلخص أميناتا تراوري الوضع كما يلي : " إن الوسائل البشرية والمالية والتكنولوجية التي يحركها الاتحاد الأوروبي ضد حركة المهاجرين الأفارقة، تجعل منها وسائل حرب بكل ما في الكلمة من معنى، حرب بين هذه القوة العالمية وشباب أفارقة عزل، قادمون من البوادي والمدن، حيث حرموا من حقهم في التربية والمعرفة الاقتصادية والعمل والتغذية، في بلادهم الأصلية الخاضعة لبرامج التقويم الهيكلي؛ فهم ضحايا قرارات واختيارات ماكرو- اقتصادية لامسؤولية لهم فيها على الإطلاق، غير أنهم يتعرضون للمطاردة والمحاصرة والإذلال عندما يحاولون البحث عن مخرج عبر الهجرة. فالقتلى والجرحى والمعاقين الذي خلفتهم الأحداث الدامية لمدينتي سبتة ومليلية سنة ٢٠٠٥، وكذلك الآلاف من الجثث التي يلقي بها البحر على شواطئ موريتانيا وجزر الكناري ولامبيدوزا وغيرها، كلهم من ضحايا الهجرة الاضطرارية التي يتم تجريمها." (٨)

الهوامش :

(١) جان زيكلير Jean Ziegler ، كاتب وأستاذ بجامعة جنيف ، مقرر خاص للجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة؛ مؤلف كتاب " شرح الجوع في العالم لوادي" Seuil باريس ٢٠٠٠.

(٢) صحيفة البايس El País ـ مدريد ١٣ ماي ٢٠٠٧؛ وكن ذلك في ليلة ١١ و ١٢ ماي.

(3) Le Courrier, Genève, 10 décembre 2006.

(٤) في ٢٨ سبتمبر ٢٠٠٥، قتل جنود إسبان ٥ شبان أفارقة كانوا يحاولون تسلق السياج المكهرب المحيط بمدينة سبتة؛ وبعد ذلك بثمانية أيام، تم قتل ٦ شباب سود آخرين في ظروف مشابهة.

(5) Human Rights Watch, 13 octobre 2005.

(٦) La Tribune de Genève, 14 décembre 2006، ويراجع كذلك العمل الذي أنجزه United et Migreurop حول هذه القضية تحت عنوان : "موتى بالآلاف على أبواب أوروبا."

(٧) يستثني هذا الرقم الأشخاص الذين يشتغلون في تربية الأسماك. يراجع " منظمة التغذية والفلاحة (FAO)، الحالة العالمية لصيد وتربية السمك، روما، ٢٠٠٧.

(٨) أميناطة طراوري Aminata Traoré في كلمتها أمام المنتدى الاجتماعي العالمي بنيروبي في ٢٠ يناير ٢٠٠٧.